الإعْجَازُ اللُّغَوِيُّ فِي القُرْآنِ الكَرِيم
بَيْنَ التَّفْسِيرِ وَالتَّأْوِيلِ
دَلالاتُ (الجَهْرِ وَالْهَمْسِ أُنْمُوذَجاً)

أ. د.عبد القادر سلاّمي
كلية الآداب واللغات
جامعة تلمسان – الجمهورية الجزائرية

فحوى البحث

تسعى الدراسة الى الوقوف على دلالات (الجهر) و (الهمس) في اصل وضعها وما اعتراها من اشارات دلالية هامشية على وفق سياقات ورودها في القرآن الكريم من جهتي التفسير والتأويل، وذلك بما يعكس الاعجاز اللغوي في القرآن الكريم بجلاء.

ويهدف البحث الى جلاء النقاط التالية:

- ان القرآن الكريم اتى العربَ بفكر جديد اودعته الفاظاً يتداولونها بينهم.
- ان القرآن معجز بمعناه وبلفظه .
- ان السياق القرآني يضفي على المعنى المعجمي للمفردة بعداً دلالياً لم يكن قائماً في ما يفسر في ضوئه المعنى الشرعي او يُؤوَّل.

والبحث يخوض موضوعات أخرى، جردنا منه ما يخص القرآن الكريم أخذاً بسياق المجلة، فمعذرة للسيد الباحث.

١. التفسير و مصطلحاته:

ارتبط معنى التفسير بمعانٍ مشتركة هي الشَّرْح والتأويل. والحقّ أن أغلب هذه المعاني معانٍ مشتركة، وإن كانت في الوقت نفسه تتفرَّدُ بدلالات خاصة تميزها عن المعاني الأخرى، إلا أن الشرح ارتبط كثيرا بالتفسير، و لعل هذه المفردة هي التي تؤدي المعنى على أحسن وجه، فالمعاني الأخرى تحوي معنى الشرح و لكنها لا تشمله. فالشرح، وإن ارتبط بمعاني الكشف و التوضيح و البيان، و الفتح و التفسير و الحفظ[١] فإنّه يجمع بين بيان وضع اللفظ و بين تفسير باطن اللفظ، أي "التفسير" و "التأويل"؛ أمّا "التفسير" فكشْفُ المُراد عن اللفظ المُشكل[٢] وبيان وضع اللفظ إمّا حقيقة أو مجازاً[٣]. أمّا "التأويل"فمن: أوَّل الكلام وتأوَّله: دبَّره وقدَّره وأوَّله: فسَّره[٤]، ويكون ذلك بردّ أحد المحتمَلَيْن إلى ما يطابق الظاهر[٥]، وبذلك خرجت دلالات هذه الألفاظ من معنى المشترك حين دخلت مجال الدراسة العلمية، فاختص التأويل و التفسير بالدراسة القرآنية[٦] و المعجمية، و الشرح بالشعر، إلا فيما ندر، وأصبح لكل منها اصطلاح خاص به. فالشرح هو التعليق على مصنف دُرِس من و جهة علوم مختلفة و قد كتبت الشروح على معظم الرسائل المشهورة أو الأشعار العربية نحو شرح مقامات الحريري (ت٥١٦هـ)[٧] وشرح مُشكل شعر المتنبي لابن سيده (ت ٤٥٨هـ). وعلى هذا فالشّرح أيضا: "توضيح المعنى البعيد بمعان قريبة معروفة" ومن هنا اكتسب الشرح معناه

(١) ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ٢/ ٤٩٧-٤٩٨، مادة (شرح).
(٢) المرجع نفسه، ٥/ ٥٥، مادة (فسر).
(٣) ينظر: وناس بن مصباح: ملاحظات أولية حول الشروح الأدبية: ٣٦.
(٤) ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ١١/ ٣٣، مادة (أول).
(٥) ينظر: وناس بن مصباح: ملاحظات أولية حول الشروح الأدبية: ٣٦.
(٦) ينظر: أمين الخولي: التفسير، معالم حياته، منهجه اليوم: ٦٨.
(٧) ينظر: فؤاد أفرام دائرة المعارف الإسلامية، ١٣/ ١٨٨.

الخاص. وأما التفسير، فهو شرح، لكنه من نوع آخر، فهو "شرح لغوي أو مذهبي لنص من النُّصوص"[٨] ومن هنا نجد أنّ هذا الاختصاص لم يأت اعتباطا، فلكل مصطلح مجاله الذي يتقاطع فيه مع المجال الثاني، لكنه لا يتّحد معه على الرغم من اتحادهما في الأصل اللغوي.

وعلى هذا فإن الشرح لفظ عام، وهو مصطلح ذ و شقّين: التفسير و التأويل، وقد يتداخل الشِّقَّان أثناء عملية الشرح، فنضطر إلى التعامل مع التفسير على أنّه مرادف للشرح.

٢. تعريف الإعجاز بين اللغة والاصطلاح:

الإعجاز في اللغة من الفعل عَجَز يعجزُ عَجْزاً فهو عاجِزٌ، والمعجزة: هي الفَوْتُ، عجَّز فلان فلاناً أي جعله عاجزاً، وأعجزَه إذ لم يستطع أمراً، وأعجزني فلان، عجزت عن طلبه وإدراكه[٩].

والمعجزة اصطلاحاً: «أمرٌ خارق، مقرون بالتحدي، سالم من المُعارضة[١٠]». أو هي «الأمر الخارق للعادة يظهر على يد مدّعي النبوّة عند التحدّي، ويعجز عنه غيره شاهداً على صدق دعواه»[١١].

ومصطلح «إعجاز القرآن» مركّبٌ إضافيّ معناه» إثبات عجز الخلق عن الإتيان بما تحدّاهم به، فهو من إضافة المصدر الى فاعله، والمفعول وما تعلّق بالفعل محذوف للعلم به، والتقدير: «إعجاز القرآن خَلْقَ الله عن الإتيان بما تحدّاهم به»[١٢].

وقد ثبت عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به النبي الأكرمﷺ إذ تحدى العرب بالقرآن الكريم وعلى مراحل، وقد عجزوا عن ذلك مع فصاحتهم وبلاغتهم، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ

(٨) يوسف خياط: معجم المصطلحات العلمية و الفنية، ص٣٥١، ٥٠١.

(٩) ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ٥/ ٣٧٠، مادة (عجز).

(١٠) الباقلاني: إعجاز القرآن. ص٢٤.

(١١) ينظر: المرجع نفسه، ص و٢٤ إبراهيم بن أحمد بن محمد الأيجي: المواقف، ص؟.

(١٢) الزرقاني: مناهل العرفان، في علوم القرآن،، ٢/ ٢٢٧.

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[سورة الإسراء: ٨٨]، وقال تعالى في مناسبة أخرى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[سورة يونس: ٣٨]، وقال تعالى أيضاً :﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٣]. فالله تعالى في كل مناسبة يتحدى العرب، كما أنه يعلم مسبقاً أنهم عاجزون ولكن الله سبحانه وتعالى يستدرجهم الى أن يثبت رسالته في نفوس هؤلاء بالحجة والبرهان، كما أن الصور المتجسدة تلفت نظر المفسر إلى كوامن المعاني وغوامض الأسرار(١٣).

٣. موضوعه وأهميته:

أما موضوع الإعجاز فهو القرآن الكريم، من حيث توضيح وجوه الإعجاز فيه، وأما أهميته فهو أهم العلوم وأشرفها لأن نبوة سيدنا محمدﷺ قد بنيت على إعجاز القرآن، ومع إن الرسول الأكرمﷺ قد أيده الله تعالى بمعجزات كثيرة غير القرآن، إلا أن معظم تلك المعجزات كانت من المعجزات الحسية، التي ظهرت في أوقات خاصة ولم يشاهدها إلا أفراد معنيون وبعضها نقل إلينا عن طريق التواتر، وبعضها نقل إلينا عن طريق الآحاد، خلافا للقرآن الكريم فهو معجزة عقلية عامة للناس جميعا، ومن هنا تبدو أهمية علم الإعجاز لأنه يزيد المؤمنين إيمانا فوق إيمانهم ويقيم الحجة على المعاندين والمستكبرين ومن في قلبه مرضٌ ويلزم العقلاء بصدق هذا الكتاب وصدق النبي الأعظمﷺ الذي جاء به ووجوب اتّباعه(١٤).

٤. وجوهه، وموقع الإعجاز اللغوي منه.

هي الأمور التي اشتمل عليها القرآن الكريم وتدلّ على أنّه من عند الله تعالى،

(١٣) حسن كاظم أسد: أثر الإعجاز التصويري التعبيري في تفسير القرآن الكريم، ٤/ ٥٥٨.

(١٤) ينظر: الباقلاني: إعجاز القرآن، ص٨ و حسن كاظم أسد: أثر الإعجاز التصويري التعبيري في تفسير القرآن الكريم، ص٥٥٩.

وليس من استطاعة أحد من الإنس والجنّ أن يأتي بمثله[١٥].

وقد حاول بعض القدماء ومن تبعهم من المتأخّرين حصر وجوه الأعجاز بعد محدود، أو في وجه واحد كبلاغة القرآن، ونظمه، أو إخباره بالمغيّبات أو بالصّرفة[*]، وغير ذلك، فقد حصرها: أبو الحسن الرمّاني (ت ٣٨٦هـ) في (النكت في إعجاز القرآن) في سبع جهات، ومنها البلاغة وتحتها عشرة أقسام فصّل الحديث عنها، والقرطبي (ت ٦٧١هـ) في(تفسيره الجامع لأحكام القرآن) في عشرة وجوه أكثرها بلاغية، والزّرْكشي (ت ٧٩٤هـ) في (البرهان في علوم القرآن) في أحد عشر وجهاً، و مجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ) في (بصائر ذوي التمييز فى لطائف الكتاب العزيز)في اثني عشر وجهاً، وأبو الحسن الماوردي الشافعي(ت ٤٥٠هـ) في (أعلام النُّبوّة) في عشرين وجها. وذكر السيوطي (ت ٩١١هـ) في الإتقان وجوهاً كثيرة للإعجاز وآراء العلماء فيه. ومن المعاصرين محمد الزّرقاني، الذي ذكر في كتابه (مناهل العرفان) أربعة عشر وجهاً للأعجاز، ومحمد أبو زهرة الذي بلغت الوجوه عنده في كتابه (المعجزة الكبرى) المائة، وذكر مصطفى صادق الرّافعي في كتابه (إعجاز القرآن والبلاغة النّبوية) وجوهاً أكثرها بلاغية، وكذلك عمر الملا حويش في كتابه (تطوّر دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة)، و أجمَل محمد عبد العزيز درّاز في كتابه (النّبأ العظيم) وجوه الإعجاز في ثلاثة: اللغوي، والعلمي، والإصلاحي الاجتماعي، وآخرهم الشيخ أحمد خلف الله الذي ذكر منه مئات الوجوه، جعلها في أقسام، وكان كتابه (القرآن يتحدّى)

(١٥) برهان الدين إبراهيم الباجوري: شرح البيجوري على جوهرة التوحيد المسمى تحفة المريد على جوهرة التوحيد، ط٤، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، سلسلة مركز الدراسات الفقهية، ١/ ١٢٦.

(*) الصرفة: «وهي صرْف الهمَم عن المعارضة، وإنْ كان مقدوراً عليها غير معجوز عنها»، ينظر: الرماني: النكت في إعجاز القرآن، ص١٠١ والخطابي: بيان إعجاز القرآن، ص٢٠.

أكثر شمولاً ودقّةً[١٦].

ولئن أحصى السيوطي في معترك الأقران للإعجاز خمسة وثلاثين وجها، بسط فيها آراء العلماء في الإعجاز ووجوهه وقد بلغ بها العلماء، وجعلها كالأمّات لكلّ ما يتعلّق بها، إلاّ أنّه أدرك بعد تقليب النّظر في القرآن الكريم بأنّ وجوه الإعجاز لا تعدّ و لاتُحصى[١٧]، وإنْ «أنهى بعضهم وجوه إعجازه إلى ثمانين»، ومع ذلك فإنّه من الناحية المنهجية يمكن حصر الإعجاز القرآني في ثلاثة أقسام كبيرة، هي: الإعجاز اللغوي و إعجاز المضمون و «وجوه أخرى»، ويشمل القسم الأخير: الصّرفة، والمتشابه، والإعجاز العددي وعلم الحروف المعتمد لحساب الجُمّل، والمثلية أو التماثل، والنّغَم والإيقاع، فضلاً عن وجوه كثيرة ذكرها العلماء[١٨] ممّا يصعب حصرها أو تتبّعها في هذه العجالة.

ويرى كثيرٌ من العلماء أنّ الله عزّ وجل تحدّى البشر ولا سيّما العرب بما كانوا يحسنون ويتفوّقون به في عصر نزول القرآن، وهو ما كان يشيع بينهم كشيوع السّحر في عصر النبّي موسى عليه السلام، وانتشار الطبّ في عصر عيسى عليه السلام، فجاءت معجزاتها توافق ما يشيع وينتشر آنذاك[١٩].

أمّا إعجاز القرآن المتعلّق بفصاحته وبلاغته فلا يتعلّق بعنصره الذي هو اللفظ والمعنى، فإن ألفاظه ألفاظهم، قال تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [سورة الزمر: ٢٨] ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ ﴾ [سورة الشعراء: ١٩٥] ولا بمعانيه، فإن كثيراً منها موجود في الكتب المتقدّمة[٢٠]، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [سورة الشعراء: ١٩٦].

غير أنّه ما يهّمنا من أمر الإعجاز في هذا المقام هو إعجاز القرآن اللغوي

(١٦) حسن منديل العكيلي: نظرات في إعجاز القرآن، ٢/ ٣٠-٣١.

(١٧) ينظر: السيوطي: إعجاز القرآن و معترك الأقران، ١/ ٥.

(١٨) ينظر: حسن منديل العكيلي: نظرات في إعجاز القرآن، ٢/ ٣١-٣٦.

(١٩) بن الماوردي: أعلام النبوة، ص٥٤.

(٢٠) السيوطي: إعجاز القرآن و معترك الأقران، ١/ ٥.

في مستواه الدّلالي، دون المستويات الأخرى المختلفة: الصوتي والصّرفي و التركيبي، والبياني والكتابي، «فقد أولى القدامى ذلك جلّ عنايتهم فخلّفوا تراثاً كبيراً آخر لم يشهد له التاريخ مثيلاً في جميع الأمم، على الرّغم من أنّ هذا القسم من الإعجاز مخصّص بالتحدّي، موجّه للعرب دون غيرهم، ممّا جعل المسلمين من غير العرب يبذلون جهوداً متواصلة لتعلّم لغة العرب ودراستها دراسة دقيقة شاملة، حتى نبَغ بها كثيرٌ منهم»[٢١].

ولئن «تهيّب كثيرٌ من السَّلف تفسير القرآن، وتركوا القول فيه حَذَراً أن يزِلوُّا فيذهبوا عن المراد، وإن كانوا علماء باللّسان، فقهاء في الدِّين؛ فكان الأصمعي (ت٢١٦هـ)، وهو إمام أهل اللغة، لا يُفَسِّرُ شيئاً من غريب القرآن. وحكي عنه أنّه سُئلَ عن قوله سبحانه ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ فسكت وقال: هذا في القرآن، الأمر الذي لم يمنعه من ذكر قولٍ لبعض العرب في جارية لقوم أرادوا بيعها: أَتَبيعُونها وهي لكم شِغَافٌ؟. ولم يزد على ذلك أو نحو هذا الكلام»[٢٢]؛ إلاّ أنّه دلّ بذلك على أنّ العاطفة الإنسانية مُحبّة بالفطرة، كون الحبّ أرقُّ من السّراب، وأدبّ من الشراب، وهو من طينة عَطِرَة عُجِنتْ في إناء الجلالة، حُلوُ المجتنى ما اقتصد، فإذا أفرط عاد خَبلاً قاتلا، وفساداً مُعضلاً، لا يُطمع في إصلاحه، له سحابة غزيرة تهمي على القلوب، فتُعْشِبُ شَعفاً، وتثمر كلفاً، وصَريعهُ دائمُ اللّوعة، ضيق المتنَفَّس، مشارف الزمن، طويل الفكر، إذا أجنه الليل أرِق، وإذا أوضحه النَّهار قَلِق، صومه البلوى، وإفطاره الشكوى[٢٣]، وأنَّ «النُّفُوسُ نُوريَة جَوْهرٍ بَسيطٍ نَزَلَ من عُلُوٍّ إلى هذه».

(٢١) حسن منديل العكيلي: نظرات في إعجاز القرآن، مجلة مآب العدد ٢، ص٣١.

(*) الكَلَف: الإيلاعُ بالشّيء والتعلُّق به. ويُقال: "لا يكون حُبُّكَ كَلَفاً، ولا بُغْضُكَ تَلَفاً". ينظر: معجم مقاييس اللغة: ٥/ ١٣٦، مادة (كلف).

(٢٢) الخطابي: بيان إعجاز القرآن، ص٣٤.

(٢٣) المسعودي: مروج الذهب، ص٣/ ٣٥١.

الجهر خلاف الهمس والخفوت نقيضه:

أ. **الجهر لغة:**

قال الرّاغب في مادة جهر: «يقال لظهور الشيء بإفراط حاسّة البصر أو حاسّة السمع؛ أمّا البصر فنحو: رأيته جهاراً، قال تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [سورة البقرة: ٥٥]، ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [سورة النساء: ١٥٣]. ومنه جَهَرَ البئرَ واجْتَهَرَهَا إذا أظهر ماءها، وقيل: ما في القوم أحد يجهر عيني. والجَوْهَرُ فَوْعَلٌ منه وهو ما إذا بَطَلَ بَطَلَ محموله، وسمي بذلك لظهوره للحاسّة. وأمّا السمع فمنه قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [سورة الرعد: ١٠]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [سورة طه: ٧]، ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ١١٠]، ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [سورة الملك: ١٣]، ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [سورة الإسراء: ١١٠] وقال: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [سورة الحجرات: ٢]، وقيل: كلام جوهريّ وجهير يقال لرفيع الصوت ولمن يجهر بحُسنه»[٢٤].

١. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ في الميزان:

قال أبو عبد الله القرطبي (ت ٦٧١هـ): قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ١١٠] فيه مسألتان:

الأولى: اختلفوا في سبب نزولها على خمسة أقوال:

الأوّل: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: نزلت ورسول الله ﷺ متوارٍ بمكة، وكان إذا صلّى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون سبُّوا القرآن ومن أنزله

(٢٤) الراغب الأصفهاني: مفردات غريب القرآن، ص١١٥، مادة: (جهر).

ومن جاء به؛ فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ فيسمع المشركون قراءتك ﴿ وَلَا تُخَافِتْ ﴾ عن أصحابك. أسمعهم القرآن ولا تجهر ذلك الجهر ﴿ وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ قال: يقول بين الجهر والمخافتة، أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم، واللفظ لمسلم. والمخافتة خفض الصوت والسكون؛ يقال للميت إذا برد خفت.

الثاني: ما رواه مسلم أيضا عن عائشة رضي الله عنها. قالت: أنزل هذا في الدعاء.

الثالث: قال ابن سيرين كان الأعراب يجهرون بتشهدهم فنزلت الآية في ذلك. قلت: وعلى هذا تكون الآية متضمنة لإخفاء التشهد، وقد قال ابن مسعود: من السنة أن تخفي التشهد. ذكره ابن المنذر.

الرابع: ما روي عن ابن سيرين أيضا أن أبا بكر رضي الله عنه كان يسرّ في قراءته، وكان عمر يجهر بها، فقيل لهما في ذلك؛ فقال أبو بكر: إنما أناجي ربي، وهو يعلم حاجتي إليه. وقال عمر: أنا أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان؛ فلما نزلت هذه الآية قيل لأبي بكر: ارفع قليلا، وقيل لعمر اخفض أنت قليلاً؛ ذكره الطبري وغيره.

الخامس: ما روي عن ابن عباس أيضا أنّ معناها ولا تجهر بصلاة النهار، ولا تخافت بصلاة الليل؛ ذكره يحيى بن سلام والزهراوي. فتضمنت أحكام الجهر والإسرار بالقراءة في النوافل والفرائض؛ فأما النوافل فالمصلي مخيّر في الجهر والسرّ في الليل والنهار، وكذلك روي عن النبيّ ﷺ أنّه كان يفعل الأمرين جميعاً. وأما الفرائض فحكمها في القراءة معلوم ليلا ونهاراً.

وقول سادس: قال الحسن: يقول الله لا ترائي بصلاتك تحسنها في العلانية و تسيئها في السرّ. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (لا تصلّ مرائيا للناس ولا تدعها مخافة الناس).

الثانية: عبّر تعالى بالصلاة هنا عن القراءة كما عبّر بالقراءة عن الصلاة في قوله: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [سورة الإسراء: ٧٨] لأنّ كل واحد منهما مرتبط بالآخر؛

لأن الصلاة تشتمل على قراءة وركوع وسجود فهي من جملة أجزائها؛ فعبّر بالجزء عن الجملة وبالجملة عن الجزء على عادة العرب في المجاز وهو كثير؛ ومنه الحديث الصحيح: "قَسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي" أي قراءة الفاتحة[٢٥].

وأمّا محمد عزت دروزة صاحب التفسير الحديث فإن له رأياً خاصاً في هذه الآية؛ إذ قال بعد أن ذكر مجمل ما ذهب إليه المفسرون في ذكر سبب نزول هذه الآية بفقرتيها الأولى والثانية: «والرويات تقتضي أن تكون كل فقرة نزلت لحدتها أو أن الآية نزلت منفصلة عمّا سبقها ولحق بها، وبالإضافة إلى هذا فإن الروايات المروية في صدد الفقرة الأولى تكلفا بل إغراباً»[٢٦].

ويتبادر لنا بالنسبة للفقرة الثانية[٢٧] أنّ النبيّ ﷺ صار يخفت في قراءته اتّباعاً لنهي آية سورة الأعراف هذه ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾[سورة الأعراف: ٢٠٥]، فشكى المسلمون من عدم سماعهم القرآن منه، فأمر فيها بالتوسط بين الجهر والإسرار[٢٨]. وقال الطاهر بن عاشور: والمقصود من الكلام النهي عن شدّة الجهر... والجهر: قوّة صوت الناطق بالكلام. والمخافتة مفاعلة: من خفت كلامه؛ إذا أسرّ به. وصيغة المفاعلة مستعملة في معنى الشدة، أي لاتسرّها[٢٩].

٢. الهمس لغة:

قال الرّاغب في مادة همس: الهمسُ

(٢٥) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٢٤٣-٢٤٤.

(٢٦) يقصد قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [سورة الإسراء: ١١٠] النور وما ذكر لها من أسباب نزول؛ كقولهم إن الكتابيين قالوا للنبي ﷺ: إنك تقلل من ذكر القرآن من أن هذا الاسم قد كثر وروده في التوراة.

(٢٧) ويقصد بها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾[سورة الإسراء: ١١٠].

(٢٨) محمد عزت دروزة: التفسير الجديد، ٣/ ٢٧٥-٢٧٦.

(٢٩) محمد الطاهر بن عاشور: ا لتحرير والتنوير، ١٥/ ٢٣٨.

الصوت الخفيُّ، وهمس الأقدام أخفى ما يكون من صوتها[٣٠]؛ قال تعالى: ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [سورة طه: ١٠٨].

وقال أبو السّعادات ابن الأثير (ت٦٠٦هـ): «(همس) فيه «فجعل بعضنا يهمس إلى بعض» الهمس: الكلام الخفيّ لا يكاد يُفهم. ومنه الحديث «كان إذا صلّى العصر همَس»، وفيه «أنّه كان يتعوّذ من همز الشيطان وهمسه» هو ما يوسوس في الصدور. وفي حديث ابن عبّاس: وهنّ يمشين بنا هميسا هو صوت نقل أخفاف الإبل. وفي رجز مسيلمة «والذئب الهامس، والليل الدامس» الهامس: الشديد»[٣١].

٣. دلالة «الهمس: في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [سورة طه: ١٠٨]».

في الميزان:

قد سبقت الإشارة إلى أنّ مادة (همس) لم ترد في القرآن الكريم كلّه إلاّ مرّة واحدة في قوله تعالى في سورة طه: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾، لذا لن يكون الكلام حول الهمس بالقدر ذاته الذي كان في موضوعة الجهر.

جاء في كتاب التحرير والتنوير للطّاهر بن عاشور (ت١٣٩٣هـ) في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [سورة طه: ١٠٨]: «والخشوع: الخضوع، وفي كل شيء من الإنسان مظهر من الخشوع في الصوت: الإسرار به، فلذلك فرع عليه قوله: ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ والهمس الصوت الخفي». وإسناد الخشوع إلى الأصوات مجاز عقلي، فإن الخشوع لأصحاب الأصوات؛ أو استعير الخشوع لانخفاض الصوت وإسراره، وهذا الخشوع من هول المقام[٣٢].

(٣٠) المرجع نفسه، ص٥٤٠، مادة (همس).

(٣١) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ٥/ ٢٧٣-٢٧٤.

(٣٢) محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير للشيخ، ١٦/ ٣٠٩-٣١٠.

وقال ابن كثير (ت٧٧٤هـ): ﴿فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً﴾ قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: يعني وطء الأقدام. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً﴾ الصوت الخفيّ، وقال سعيد بن جبير: الحديث وسرّه، ووطء الأقدام، فقد جمع سعيد كلا القولين، وهو محتمل، أما وطء الأقدام فالمراد سعي الناس إلى المحشر وهو مشيهم في سكون وخضوع، وأما الكلام الخفيّ فقد يكون في حال دون حال. فقد قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾[٣٣].

وجاء في التفسير الكبير للرازي (ت٦٠٦هـ): «قوله: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [سورة طه: ١٠٨] وفي وجوه: أحدهما: خشعت الأصوات من شدة الفزع وخضعت وخفيت فلا تسمع إلا همسا وهو الذكر الخفيّ، قال أبو مسلم: وقد علم الإنس والجن بأن مالك لهم سواه فلا يُسمع لهم صوت يزيد على الهمس وهو أخفى الصوت ويكاد يكون كلاماً يفهم بتحريك الشفتين لضعفه. وحق لمن كان الله محاسبه أن يخشع طرفه ويضعف صوته ويختلط قوله ويطول غمّه. وثانيها: قال ابن عباس والحسن وعكرمة وابن يزيد رضي الله عنهم: الهمس وطء الأقدام، فالمعنى أنه لا تسمع إلاّ خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر"[٣٤].

وجاء في كتاب زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج ابن الجوزي (٥٩٧هـ) في تفسير وله تعالى: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [سورة طه: ١٠٨] ما نصه: «وفيه ثلاثة أقوال: أحدهما: وطء الأقدام؛ رواه العوفي عن ابن عباس وبه قال الحسن وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد في رواية، واختاره الفرّاء والزجّاج. الثاني: تحريك الشفاه بغير نطق رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. الثالث: الكلام الخفي روي

(٣٣) محمد علي الصابوني: تفسير ابن كثير اختصار وتحقيق، ٢/ ٤٩٤.

(٣٤) فخر الدين الرازي: التفسير الكبير، ٢٢/ ١٠٢-١٠٣.

عن مجاهد، وقال أبو عبيدة: الصوت الخفيّ[٣٥].

خلاصة:

بعدما سيق من أقاويل المفسرين في تحديد دلالة الجهر في الآيات القرآنية خلصنا إلى الآتي:

- أنّ الجهر نوعان: جهر تدركه الأسماع؛ وهو الوارد في أغلب الآيات من مثل قوله تعالى: ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [سورة النساء: ١٤٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [سورة الملك: ١٣] وجهر تدركه الأبصار؛ وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [سورة البقرة: ٥٥]، وفي قوله تعالى: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [سورة النساء: ١٥٣]. و كلا النوعين حقيقة على ما حقّقه الطاهر بن عاشور معوّلا على ما ذهب إلى الراغب الأصفهاني، راداً بذلك على الزمخشري[٣٦].

- تأتي كلمة الجهر في القرآن بدلالات متنوعة -على غرار كلمة (أُمّة)، وكلمة (وحي) -في القرآن كريم ولكنّ أغلبها متقاربة؛ فقد جاءت بمعنى: العلانية، والعِيان، و الظهور الواضح، و ما يبلغ إلى أسماع الناس، و الدعاء على الظالم وذكره بسوء باقتصاد من المؤمن وبإطلاق مع غيره، و التشهير بمن أبى الاستضافة، القول بنوعيه (الظاهر والخفيّ)، النهار (ضد الليل)، الرفع في القول، ما نطقت به الألسنة، و تعميم الإنفاق، و الرياء، وقوّة صوت الناطق بالكلام، و ضد المخافتة، و ضد السرّ وما هو أخفى من السرّ، أسلوب في دعوة الأنبياء، و ضد النسيان، فكان بذلك درجات ومقادير متفاوتة؛ فما كان موافقا لمعتاد الكلام فهو جهر، وما

(٣٥) ابن الجوزي، أبو الفرج: زاد المسير في علم التفسير، ص٢٢٣.

(٣٦) ينظر: الراغب الأصفهاني: مفردات غريب القرآن، ص١١٥، مادة: (جهر).

تجاوزه و زاد عنه فهو رفع للصوت؛ كما بين ذلك الطاهر بن عاشور في بداية سورة الحجرات. والنبيّ ﷺ كان يتكلم بجهر معتاد.

- أنّ كلمة الهمس في القرآن تأتي بدلالات متنوعة في القرآن الكريم- على غرار كلمة (جهر)؛ فقد جاءت بمعنى: الصوت الخفي، الكلام الخفي، الذكر الخفيّ، الحديث وسرّه، صوت خفي يكاد يفهم بتحريك الشفتين لضعفه، تحريك الشفاه بغير نطق، وطء الأقدام.

- أنّ الآية الكريمة ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [سورة طه: ١٠٨] جاءت لتصوّر مشهداً من مشاهد يوم القيامة؛ وهو مشهد جليل يكتنفه الخشوع والجلال من كل جهة؛ والهمس هو إحدى صور هذا الخشوع، وهذا الخشوع هو من هول المقام. يقول سيّد قطب رحمه الله في تفسير الظلال: «ثم يخيّم الصوت الرهيب والسكون الغامر: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [سورة طه: ١٠٨]، ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ [سورة طه: ١١١]. وهكذا يخيّم الجلال على الموقف كلّه، وتغمر الساحةَ التي لا يحدّها البصرُ رهبةٌ وصمتٌ وخشوعٌ. فالكلام همس. والسؤال تخافت. والخشوع ضاف. والوجوه عانية. وجلال الحيّ القيّوم يغمر النفوس بالجلال الرزين. ولا شفاعة إلا لمن ارتضى اللهُ قولَه. والعلم كلُّه لله. وهم لا يحيطون به علما. والظالمون يحملون الخيبة. والذين آمنوا مطمئنون لا يخشون ظلما في الحساب ولا هضما لما عملوا من صالحات. إنه الجلال، يغمر الجوّ كله ويغشاه، في حضرة الرحمن»[٣٧].

وبناءً على ما تقدّم، فإنّ الجهر هو ارتفاع للصّوت وهو ضدّ الخُفوت

(٣٧) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، ١٢- ١٨/ ٢٣٥٢-٢٣٥٣.

الذي هو انتفاءُ الصّوت، وأنّ الهمس منزلة بين المنْزلتيْن، وهو صوت مسموعٌ مع ذلك لكنّه دون الجهر، ولذا أمكن العلماء أن يضعوه في مقابل الجهر لأنه خلافه، ووجبت الصّلاة بها مع يترتّب عن عُجمة الظهر والعصر بالنسبة إلى صلاة الذّكر من المسلمين وعُجمة كلّ الصّلوات الخمس عند الإناث منهم. ولئن كان الخفوت انعدام للصّوت، فكيف يمكن أن نقف على مضمونه إذا انعدم وما قد مايترتّب عن ذلك من عدم القدرة على تصحيح التلاوة بوجه من الوجوه؟.

خاتمة وتوصية:

عكفنا في دراستنا التدبّرية على استنطاق بعض المصطلحات القرآنية التي تلهجُ بها الألسنة آناء اللّيل وأطراف النّهار من دون إدراك منها لأوجه الصّواب فيها أو أن يقووا على تخريجها، بما تمليه طبيعة المعجم اللغوي والسياق القرآني، للتدليل على أنّ القرآن لم يأتِ العرب بلغة جديدة وإنّما أتاهم بفكر جديد ضُمّن ألفاظاً يعرفونها ولا يقوَوْنَ على مجاراتها، "فتحدّاهم بما كانوا لا يشكون أنّهم يقدرونَ على أكثر منه، فلمْ يَزَلْ يقرَعُهم بعجزهم وينقصهم على نقصهم، حتّى تبيّنَ ذلك لضعفائهم وعوامّهم كما تبيّن لأقويائهم وخواصّهم"[٣٨]. ولئن كان القرآن الكريم وما يزال مثارَ حركة علمية، شملت جميع نواحيه نحواً، وصرفا، ولغةً، وبلاغة، وإعجازاً، إلاّ أنّه يجب الإقرار من باب «الصّواب أنّه لا نهاية لوجوه إعجازه»[٣٩]، والدلالة إحداها، وهو ما عمدنا إلى تحقيق غيض من فيضه، مع رجائنا أن يكون فاتحة لباب سَيَلجُه آخرون. والحمد لله أوّلاً وأخيراً.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

- أسد، حسن كاظم: أثر الإعجاز التصويري التعبيري في تفسير القرآن الكريم، سلسلة (أ) العلوم

(٣٨) الجاحظ: حجج النبوة، ضمن رسائل الجاحظ، ٢/ ٢٧٩.

(٣٩) السيوطي: إعجاز القرآن و معترك الأقران، ١/ ٥.

الإنسانية، مجلة جامعة بابل، العراق، المجلد ١٩، العدد ٤، كانون أول، ٢٠١١م.
- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب: إعجاز القرآن. تحقيق أحمد صقر. ط٣-دار المعارف -مصر.
- ابن الأثير، مجيي الدين أبي السعادات، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق محمود محمد الطناحي وطاهر أحمد الزاوي، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٨٣هـ -١٩٦٣ م.
- ابن الجوزي، أبو الفرج: زاد المسير في علم التفسير، تحقيق محمد بن عبد الرحمن عبد الله، وخرّج أحاديثه: أبو هاجر، دار الفكر، ط١، بيروت، لبنان ١٤٠٧هـ -١٩٨١م.
- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن: جمهرة اللغة، دار صادر، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، ط١، ١٣٤٥هـ.
- ابن الماوردي، أبو الحسن علي: أعلام النبوة، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٦م.
- ابن عاشور، محمّد الطاهر: التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، ١٩٩٧م.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت.
- الجاحظ، أبو عمرو عثمان بحر: حجج النبوة، ضمن رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط٢، ١٩٩٢م،
- الخطابي، أبو سليمان أحمد بن محمد، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الرّمّاني والخطّابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق وتعليق محمد خلف الله محمد و محمود زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٣٨٧هـ -١٩٦٨ م.
- الخليل بن أحمد، أبو عبد الرحمن، العين، تحقيق إبراهيم السامرائي ومهدي المخزومي، دار الرشيد

للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٨٠م.
- الخولي، أمين: ينظر التفسير، معالم حياته، منهجه اليوم، أخرجه في كتاب مستقل جماعة الكتاب، ١٩٤٤م.
- خياط، يوسف: معجم المصطلحات العلمية و الفنية، دار لسان العرب، بيروت، ١٩٧٤م.
- دروزة، محمّد عزّت: التفسير الجديد، دار إحياء الكتب العربية ١٣٨١هـ-١٩٦٢م.
- الرّازي، فخر الدّين: التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
- الراغب الأصفهاني، أبو الفرج: مفردات غريب القرآن، راجعه وعلق عليه نجيب الماجدي، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، لبنان، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
- الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى: النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر.
- الزرقاني، محمد: مناهل العرفان، في علوم القرآن، دار الفكر.
- الزمخشري، جار الله: الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق وتعليق: محمد مرسي عامر، دار المصحف. القاهرة.
- إعجاز القرآن و معترك الأقران، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٠٨ هـ-١٩٨٨ م.
- الصابوني، محمّد علي: تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق، دار القرآن الكريم، ط٧، بيروت، ١٤٠٢هـ-١٩٨١م.
- العكيلي، حسن منديل: نظرات في إعجاز القرآن، مجلة مآب، تصدرها دائرة الشؤون القرآنية بمؤسسة شهيد المحراب قدس سره للتبليغ الإسلامي، النجف، العراق، السنة ٢، العدد ٢، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٧م.
- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن

يعقوب: القاموس المحيط، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ودار الجيل بيروت.

- القرطبي، أبو عبد الله الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، صحّحه أحمد عبد العليم البردوني، دار الكتاب العربي. ط٢، بيروت، لبنان، ١٩٥٢م.

- قطب، سيّد: في ظلال القرآن، دار الشروق، ط١٥، القاهرة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق وتعليق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي، دار القلم، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ-١٩٨٩م.